القلوب

الفهرس

الفصل الأول: بذرة النور	ص3
الفصل الثاني: غربة القلب	ص5
الفصل الثالث: أول الاصطدام	ص7
الفصل الرابع: مرايا التبرير	ص9
الفصل الخامس: الانكسار	ص11
الفصل السادس: الصحبة والأختبار	ص13
الفصل السابع: لحظة الصدق	ص15
الفصل الثامن: الامتحانات و ضوء ربي	ص17
الفصل الأخير: مسك الختام	ص20
الملخص	ص22
حقوق الطبع والنشر	ص23
الدروس المستفادة	ص23 – ص24

الفصل الأول: بذرة النور

اسمي يوسف.

لم أولد في بيتٍ صاخبٍ ولا في مهدٍ مضطرب، بل فتحت عينيّ على سكونٍ يشبه الطمأنينة، وعلى دفءٍ يشبه الدعاء المستجاب. كان بيتنا صغيرًا في حجمه، عظيمًا في معناه؛ جدرانه لم تكن تحفظ الأصوات بقدر ما تحفظ الذكر، وسقفه لم يكن يظلّلنا من الشمس فقط، بل كان يظلّل قلوبنا بالرضا. في ذلك البيت، تعلّمت أول دروس الحياة قبل أن أفهم الحروف، وتعلّمت أول معنى للإيمان قبل أن أعرف اسمه.

والداي لم يكونا كثيري الكلام، لكن أفعالهما كانت تشرح كل شيء. كان أبي إذا نطق صدق، وإذا سكت علّمني بالصمت، وكانت أمي تُربّت على قلبي قبل رأسي، وكأنها تعلم أن القلب هو أول ما يجب أن يُرتّى. لم يُغرسا فيّ حب الله بالأوامر الجافة، بل بالقدوة؛ رأيت الصلاة تمشي على قدمين، ورأيت الصبر يُخضّر الطعام، ورأيت الشكر يفتح باب البيت كل صباح.

كنت طفلًا حساسًا، تُربكني التفاصيل الصغيرة، وتشدّني الأشياء التي لا ينتبه لها أحد. كنت أتساءل عن سبب تغيّر لون السماء عند الغروب، ولماذا يهدأ قلبي حين أسمع الأذان، وكيف يمكن لكلمةٍ طيبة أن تُغيّر يوم إنسانٍ كامل. لم أكن أجد نفسي في ضحكات اللعب العابرة بقدر ما أجدها في لحظات الصمت الطويل، حين أجلس وحدي وأُحدّق في الفراغ وكأنني أبحث عن إجابةٍ تختبئ خلف الأشياء.

كان الأطفال من حولي يركضون خلف الكرة، أما أنا فكنت أركض خلف المعنى. كنت أراقب الوجوه، أقرأ الحزن في العيون قبل أن ينطق، وأشعر بالفرح حين أرى ابتسامة صادقة، كأنها رسالة خفية موجهة لي وحدي. وكنت إذا أخطأت، يؤلمني الخطأ لا خوفًا من العقاب، بل حزنًا لأنني شعرت أنني خيّبت ظنًّا كان ينبغي ألا يُخيّب.

قصص الأنبياء لم تكن بالنسبة لي حكايات تُروى قبل النوم، بل نوافذ أطلّ منها على العالم. كنت أستمع إليها وكأنني أعيش داخلها؛ أسمع صبر نوح في هدير الموج، وأرى ثبات إبراهيم في لهب النار، وأتعلّم من يوسف — الذي حملت اسمه —

كيف يكون النقاء امتحانًا، وكيف يكون الصبر طريقًا لا التفاف فيه. كنت أتساءل: هل يمكن لإنسانٍ عادي مثلي أن يسير على أثرهم؟ وهل يرضى الله بمحاولة صادقة وإن كانت متعثرة؟

منذ صغري، كان في قلبي حلمٌ لا يشبه أحلام الأطفال. لم أحلم باللعب الكثير ولا بالمظاهر، بل حلمت أن يكون لحياتي وزنٌ عند الله، وأن أستيقظ كل يوم وأنا أعلم أنني خُلقت لغاية، لا لعبث. كنت أحرص على الصلاة في وقتها، لا لأن أحدًا يراقبني، بل لأن قلبي كان يشعر بالضيق إن تأخرت عنها، كأنها موعدٌ مع السكينة لا يجوز تفويته. وكنت أرى برّ الوالدين عبادةً صامتة، لا تحتاج إلى تصفيق، لكنها تُنير الطريق من الداخل.

تعلمت مبكرًا أن الإعجاز لا يسكن في الأمور العظيمة وحدها، بل في أبسط التفاصيل؛ في ابتسامةٍ تُعيد الأمل، وفي كلمةٍ تُخفف حملًا ثقيلًا، وفي نيةٍ خالصة لا يراها إلا الله. كنت أتعجب كيف يُمكن للعالم أن يكون قاسيًا إلى هذا الحد، ومع ذلك يترك الله فيه هذا الكم من الرحمة المخبأة، وكأنه يختبر قدرتنا على رؤيتها.

كبرتُ قليلًا، لكن أسئلتي كبرت أكثر. ما حقيقة هذه الدنيا؟ ولماذا خُلقت؟ وأين مكاني في هذا الزحام؟ لم تكن الأسئلة تُخيفني، بل كانت تشعرني بأنني حيّ. كنت أعلم في أعماقي أن الطريق لن يكون سهلًا، وأن القلب الذي اختار البحث عن الحق لن يُترك دون ابتلاء، لكنني كنت مطمئنًا؛ لأن من يبدأ رحلته مع الله، لا يضيع وإن طال الطريق.

وهكذا، بدأت قصتي... لا كبطلٍ خارق، ولا كحكيمٍ مكتمل، بل كقلبٍ صغير، صادق النية، يبحث عن النور، ويؤمن أن الله لا يخذل من قصده.

الفصل الثاني: غربة القلب

دخلتُ سنَّ المراهقة، ولم أدخلها وحدي؛ دخلت ومعي غربةٌ خفيّة، تسلّلت إلى قلبي دون استئذان. لم تكن غربة مكانٍ ولا وجوه، بل غربة نفسٍ عن نفسها، كأنني أستيقظ كل صباح فأبحث عن يوسف الذي كنت أعرفه فلا أجده حيث تركته. شعرت أن شيئًا ما انكسر في داخلي، لا يُرى بالعين، لكنه يُثقِل الروح.

لم أعد ذلك الفتى الذي كان يعرف طعم الطاعة كما يعرف طعم الخبز اليومي. خفّت صلتي بالصلاة، لا انقطاعًا كاملًا، بل فتورًا موجعًا؛ كنت أصلّي، لكن قلبي يتأخر عني. ولم أعد أبرّ والديّ كما كنت، لا عصيانًا صريحًا، بل تقصيرًا صامتًا، وذلك أشد ألمًا. أما تلك القدرة على صناعة الإعجاز من البسيط، فقد بهتت، وكأن قلبي فقد عدسته التي كان يرى بها النور في التفاصيل.

وجدتُ نفسي ممزقًا بين أطراف متنازعة: بين واجباتٍ أعرف حقّها وأهواءٍ تشدّني بقوة، بين أخلاقٍ تربّيت عليها وطموحٍ يريد أن يسبق كل شيء، بين رغبةٍ تلحّ وهوى يزين لها الطريق. كنت أعلم الحق، لكنني لا أملكه كما كنت أملكه من قبل؛ أعرفه بعقلي، ويخاصمه قلبي. وذلك هو الامتحان الحقيقي.

في ليالٍ كثيرة، كنت أسهر وحدي. لا صخب ولا ضجيج، فقط صحف مفتوح، وقلبٌ مفتوح أكثر. أقرأ الآيات ببطء، لا أبحث عن كثرة الختمات، بل عن آيةٍ تمسّ جرحي. كنت أتوقف طويلًا عند الوعيد، فتقشعر روحي، وأتوقف عند الرحمة، فتسيل دموعي. ثم أسجد، لا سجود عادة، بل سجود افتقار؛ أضع جبيني على الأرض وكأنني أضع ثقلي كله هناك، وأحدّث الله في صمتٍ لا يسمعه سواي.

كنت أقول: يا رب، لقد قصّرت، وأنا أعلم أن عذابك شديد، لكن رحمتك أوسع. أبكي بحرقةٍ لا لأجل أحد، بل لأجل نفسي التي ظلمتها بجهلي وقصوري. كنت أرى ذنوبي أكبر من طاقتي، وأرى قلبي أضعف من مقاومة الدنيا وحده. ومع ذلك، كان في البكاء راحة، وفي الاعتراف قوة، وفي السجود عودة بطيئة للنور.

أحسست بالفراغ يتّسع داخلي، فراغٍ لا يملؤه إنجاز ولا يسكّنه مديح. حاولت أن ألهيه أحيانًا، أن أهرب منه، لكنه كان يعود أقوى، يذكّرني بأن القلب خُلق لشيء أعظم من اللهو، وأن الروح لا تهدأ إلا إذا عادت إلى أصلها. كنت أضيع، ثم أعود، ثم أضيع؛ كأنني أتعلم المشي من جديد، وكل مرة أسقط فيها أتعلم موضع قدم آخر.

لم أكن أعرف طريق العودة بوضوح. لم يكن لديّ دليلٌ كامل ولا خطة محكمة، كل ما كنت أملكه دعاءٌ صادق ورغبةٌ خجولة في الرجوع. كنت أتعلم أن الطريق إلى الله ليس خطًا مستقيمًا دائمًا، بل مسارًا مليئًا بالالتواءات، وأن السقوط لا يُنهي الرحلة ما دام القلب لم يستسلم.

في تلك المرحلة، فهمت معنى أن يكون الإيمان جهادًا داخليًا. ليس شعارات تُرفع، ولا مظهرًا يُتقن، بل معركة صامتة بين ما ينبغي أن أكونه وما أريده في لحظة ضعف. أدركت أن الله لا يطلب الكمال، بل الصدق، ولا يكره العبد العائد، بل يفرح به، ولو عاد مثقلًا بالذنوب.

وهكذا، كان فصل المراهقة بالنسبة لي مرآةً قاسية، لكنها صادقة. كشفت ضعفي، وعرّت غروري الخفي، وعلّمتني أن القرب من الله لا يُورث إلا لمن يصبر على نفسه. لم أخرج من هذا الفصل منتصرًا تمامًا، ولا مهزومًا تمامًا، بل خرجتُ واعيًا: أعرف أن قلبي قد يضل، لكن بابه إلى الله لا يُغلق، وأن الدعاء، مهما بدا بسيطًا، قد يكون الخيط الأخير الذي يُنقذ الغريق.

الفصل الثالث: أول الاصطدام

لم تأتِ العودة إلى الله دفعةً واحدة، ولم يكن الضياع نهايةً صريحة، بل كانت حياتي في تلك المرحلة تشبه بحرًا هادئ السطح، مضطرب الأعماق. كنت أظن أنني ما دمت أدعو وأبكي وأعود، فإن الطريق قد استقام، لكن الحقيقة أن الله كان يُعدّ لي درسًا لا يُنسى؛ درسًا لا يُحفظ بالكلمات، بل يُنقش بالتجربة.

جاء أول اصطدام حين ظننت أنني أصبحت أقوى من قبل. شعرت بشيءٍ من الرضا عن نفسي، كأنني تجاوزت المرحلة الأصعب، وكأن قلبي صار محصّنًا من السقوط. وذلك الشعور الخفي بالاطمئنان الزائد كان بذرة الغفلة الجديدة. لم يكن ذنبًا ظاهرًا، بل ثقة زائدة بالنفس، ونسيانٌ تدريجي للافتقار.

في تلك الأيام، عُرضت عليّ فرصة بدت في ظاهرها عادية، بل مغرية. لم تكن حرامًا صريحًا، لكنها كانت بعيدة عن النقاء الذي تعلّمت أن أبحث عنه. ترددت، كثيرًا. كان في داخلي صوتان: صوتٌ يذكّرني بمن أريد أن أكون، وصوتٌ آخر يهمس: "لن يحدث شيء، الجميع يفعل ذلك". وبين الصوتين، وقف قلبي حائرًا، لا يملك الشجاعة الكاملة للرفض، ولا الطمأنينة الكاملة للقبول.

اخترت الطريق الأسهل.

لم يكن السقوط مدوّيًا، بل هادئًا، وهذا ما جعله أخطر. مرّ اليوم، ثم الذي يليه، وأنا أشعر بثقلٍ غامض في صدري. لم أفعل ما يدمّر ظاهري، لكن شيئًا في داخلي تغيّر. خفّ حضوري في الدعاء، وصار السجود أقصر، لا لأن الوقت ضاق، بل لأن القلب تثاقل. عرفت حينها أن بعض الأخطاء لا تجرح السلوك، بل تجرح الروح.

حاولت أن أُقنع نفسي أن الأمر بسيط، وأنني أستطيع التراجع متى شئت. لكن النفس إذا ذاقت التبرير، طلبته مرةً بعد مرة. بدأت المسافة بيني وبين ما أؤمن به تتسع، لا بخطوات كبيرة، بل بخطوات صغيرة لا تُرى، حتى وجدتني في منتصف الطريق، لا أنتمي تمامًا إلى ما كنت، ولا أرتاح لما صرت إليه.

وفي ليلةٍ أثقل من غيرها، عدت إلى المصحف. فتحتُه بلا نيةٍ محددة، فكانت الآيات كأنها كُتبت لي وحدي. شعرت أن القرآن لا يوبّخني، بل يكشفني؛ يضع يده على موضع الداء دون قسوة. بكيت، لا خوفًا هذه المرة، بل خجلًا. خجلٌ من قلبٍ يعرف الحق، ثم يؤثر غيره.

سجدت طويلًا، ولم أطلب كثيرًا. قلت فقط: يا رب، لا تتركني إلى نفسي. فهمت في تلك السجدة أن أكبر الخسائر ليست في الوقوع، بل في الاعتماد على النفس، وأن النجاة لا تكون بكثرة المحاولات وحدها، بل بالصدق فيها.

خرجت من هذا الاصطدام مثقلًا، لكنني لم أخرج فارغ اليدين. تعلّمت أن الطريق إلى الله ليس سباقًا، وأن الثبات أعظم من الحماسة، وأن بعض الدروس لا تُعطى إلا بعد أن نخطئ ونحن نظن أننا أحسنا. أدركت أن الله إذا أحب عبدًا، لم يتركه يضل طويلًا، بل يوقظه، ولو بالألم.

وكان ذلك الاصطدام... أول علامة حقيقية على أن الرحلة قد بدأت فعلاً، وأن ما هو قادم لن يكون أسهل، لكنه سيكون أصدق.

الفصل الرابع: مرايا التبرير

لم يأتِ الانحدار فجأة، بل جاء متخفّيًا في ثوب العقل. بعد أول اصطدام، لم أعد أُخاصم الخطأ كما كنت، بل بدأت أُحاوره. والعقل إذا فتح باب الجدل مع الهوى، خسر المعركة قبل أن تبدأ. صرت أبحث عن الأعذار كما يبحث العطشان عن السراب؛ أراه من بعيد مقنعًا، وحين أصل إليه أزداد عطشًا.

في تلك الفترة، ازدحمت أيامي بالأحداث. لم تكن كلها سيئة، وهذا ما جعل التبرير أسهل. نجاحات صغيرة، إشادات عابرة، انشغال بالدراسة وبالطموح الذي كان يلحّ عليّ بإلحاح لا يعرف الرحمة. قلت لنفسي: «أنا لا أترك الخير، أنا فقط أؤجله». ونسيت أن الخير إذا أُجّل كثيرًا، تغيّر شكله في القلب.

دخلت دوائر جديدة من الناس. لم يكونوا أشرارًا، ولم يكونوا صالحين بالمعنى الذي عرفته من قبل؛ كانوا منطقة رمادية، مريحة، لا تُدين ولا تُذكّر. الحديث معهم كان خفيفًا، والوقت يمر سريعًا، والضمير يهدأ مؤقتًا. كنت أضحك أكثر، لكن قلبي كان أقل يقظة. وكنت كلما غاب الذكر، حضر اللهو، وكلما حضر اللهو، طال الغياب.

جاءت أول مواجهة حقيقية حين عاد صوت قديم يطرق قلبي: صوت أمي. لم تُعاتبني مباشرة، بل نظرت إليّ نظرةً طويلة، كأنها تقرأ ما لم أقله. قالت بهدوء: «مالك مش شبه نفسك؟». كانت جملة قصيرة، لكنها كسرت شيئًا في داخلي. حاولت أن أبتسم، أن أغيّر الموضوع، لكن السؤال ظلّ يتردد في صدري طوال اليوم.

في المساء، عدت إلى غرفتي مثقلًا. فتحت هاتفي لأهرب، فوجدت ما يزيدني شرودًا. أغلقتُه، وجلست في صمتٍ متوتر. كان الصراع هذه المرة أشدّ؛ ليس بين حرامٍ وحلال، بل بين الصدق مع النفس والراحة المؤقتة. والراحة المؤقتة كانت مغرية حدّ الخداع.

في اليوم التالي، وقعت حادثة صغيرة، لكنها كانت فاصلة. كلمة قاسية خرجت من لساني في غير موضعها، جرحت شخصًا لم يكن يستحق. لم أكن أقصد، لكن القصد لا يمحو الأثر. رأيت في عينيه انكسارًا خفيفًا، وعرفت حينها أن القلب إذا قسا، قسا على غيره قبل أن يقسو على نفسه. اعتذرت، لكن الاعتذار لم يُطفئ وخز الندم.

تتابعت الأحداث كأنها مرايا تُعرض أمامي واحدةً تلو الأخرى. صلاة تؤجَّل، دعاء يُختصر، نيةٌ تُسوَّف. وكل مرة أقول: «غدًا أعود». ولم أكن أدري أن أخطر كلمة على الطريق هي «غدًا». فهي لا ترفض الحق، لكنها تؤجله حتى يهرب.

وفي ليلةٍ مضطربة، خرجت أمشي بلا وجهة. الشوارع ساكنة، والسماء صافية، وأنا ممتلئ بالضجيج. توقفت عند مسجدٍ صغير، كان بابه مفتوحًا ونوره خافتًا. دخلت على استحياء، وجلست في آخر الصفوف. لم يكن هناك درس ولا جماعة، فقط رجل مسنّ يقرأ القرآن بصوتٍ متهدّج. كل آية كانت تسقط في قلبي كحجرٍ في ماءٍ راكد، تحرّكه وتُحوله.

جلست طويلًا. لم أبكِ فورًا، بل شعرت أولًا بثقل الحقيقة. فهمت أنني لم أبتعد لأنني ضعيف فقط، بل لأنني رضيت بالتبرير بدل المجاهدة. وأن الله لم يبتعد عني، بل أنا الذي غطّيت قلبي بطبقات من الأعذار.

عدت إلى البيت تلك الليلة ببطء. صلّيت صلاةً مختلفة؛ لم تكن طويلة ولا بليغة، لكنها كانت صادقة. قلت: «يا رب، إن كنتُ أبرّر لنفسي، فلا تتركني لها». شعرت بسكينةٍ خفيفة، لا تُشبه الانتصار، بل تُشبه بداية اليقظة.

انتهى ذلك الفصل من حياتي دون إعلانٍ رسمي، لكنه ترك أثره. تعلّمت أن التبرير أخطر من الذنب، لأنه يقتل الإحساس بالحاجة إلى التوبة. وتعلّمت أن الله إذا أراد بك خيرًا، جعل الأحداث تكاثر حولك حتى ترى نفسك بوضوح.

وكانت تلك المرايا، على قسوتها، تمهيدًا لانكسارٍ أكبر... وانتباهٍ أصدق.

الفصل الخامس: الانكسار

لم يكن الانكسار حدثًا واحدًا يمكن الإشارة إليه، بل كان تراكمًا صامتًا، حتى جاء اليوم الذي لم يعد فيه الصمت محتملًا.
استيقظت صباحًا وأنا أشعر بثقلٍ غير مألوف، كأن الليل ترك بقاياه في صدري. حاولت أن أمارس يومي كالمعتاد، لكن كل شيء كان يبدو هشًّا: الكلمات، الوجوه، وحتى خطواتي.

في ذلك اليوم، سقط القناع أخيرًا. لم يكن قناع الصلاح ولا قناع الفساد، بل قناع التوازن المزيّف. جاءت الخسارة من حيث لم أتوقع: أمرٌ تعلّق بكرامتي، وتصدّعٌ في ثقةٍ كنت أظنها ثابتة. كلمةٌ قيلت في غير موضعها، قرارٌ اتُّخذ دوني، وشعورٌ جارح بأنني لستُ كما ظننت نفسي. لم يكن الألم في ما حدث، بل في ما كشفه.

عدت إلى البيت مبكرًا. جلست وحدي، وانهارت الأسئلة دفعة واحدة: من أنا؟ وما الذي أريده حقًا؟ ولماذا كلما اقتربتُ من نفسي ابتعدتُ عنها؟ شعرت أنني كنت أعيش على حافة حقيقتي، أراها ولا أدخلها. حاولت التماسك، لكن التماسك في تلك اللحظة كان كذبًا آخر.

جاء المساء، ومعه زار الانكسار وضوحًا. فتحت الصحف فلم أستطع القراءة. ركعت فلم أستطع الإطالة. كانت الدموع أقرب من الكلمات، لكنها لم تنزل. كان في داخلي جدارٌ من العناد، عناد المتعب الذي يخشى الاعتراف الأخير. جلست طويلًا، أستمع إلى دقات قلبي كأنها تُحصي أخطائي واحدةً واحدة.

ثم حدث ما لم أكن أريده ولا أقدر على دفعه: انهرت. لا صراخ، ولا ضجيج، بل انهيار هادئ، كامل. بكيت كما لم أبكِ من قبل، بكاءً بلا عبارات، كأن الدموع وحدها تفهم. سقطت كل الأعذار، وتعرّت كل التبريرات، وبقيت أنا كما أنا: ضعيفًا، محتاجًا، صادقًا لأول مرة منذ زمن.

قلت: يا رب، لقد تعبت من التمثيل. تعبت من أن أبدو أقوى مما أنا، وأصلح مما أنا، وأهدأ مما أنا. إن كان في كسري هذا رحمة، فخذني بها. لم أساوم، ولم أعد أطلب حلولًا سريعة. طلبت فقط أن أُرى كما أنا، وأن لا يُغلق الباب.

وفي لحظةٍ لا تُقاس بالزمن، شعرت بشيءٍ يُزاح عن صدري. لم تختفِ المشكلة، ولم يتغيّر الواقع، لكن قلبي تغيّر موضعه. أدركت أن الانكسار ليس هزيمة، بل نهاية حربٍ خاسرة مع النفس. وأن الله لا يطلب منا أن نصل إليه واقفين دائمًا، بل صادقين، ولو زحفًا.

خرجت من تلك الليلة مختلفًا. ليس أقوى، ولا أنقى، بل أصدق. عرفت أن الطريق لن يعود سهلًا، وأن آثار السقوط ستبقى، لكنني تعلمت درسًا لا يُنسى: أن القلب إذا انكسر لله، صار أصلب على الدنيا. وأن الاعتراف ليس ضعفًا، بل بداية الشفاء.

كان ذلك الانكسار فاصلةً حقيقية في حياتي. بعده، لم تعد الأسئلة كما كانت، ولم تعد التبريرات تقنعني. صار في داخلي معيارٌ جديد: هل هذا يقربني من صدقي أم يبعدني عنه؟

ومن بين الشقوق التي أحدثها الكسر، بدأ نورٌ خافت يتسرّب... نورٌ لا يُبهر، لكنه يهدي.

الفصل السادس: الصحبة والاختبار

بعد الانكسار، لم تعد الأيام تعود كما كانت، لكنها لم تصبح مستقيمة بعد. كنت أسير بخطى أهدأ، لكن تعلّم أن الأرض قد تخونه إن أسرع. كان في داخلي صدقٌ جديد، هشّ كغصنٍ أخضر، يخاف الريح ويحتاج إلى من يحميه. وكنت أعلم — دون أن أُصرّح لنفسي — أن أول ما سيُختبر بعد الصدق هو الصحبة.

دخلت حياتي وجوهٌ مختلفة في زمنٍ متقارب، وكأن القدر أراد أن يضعني بين خياراتٍ لا تُحسم بالكلام. صديقٌ قديم عاد يحمل ذكرياتٍ دافئة ولهجة طمأنينة، لا يدعوك للشر، لكنه لا يمنعك عنه. ووجهٌ آخر جديد، هادئ محه هادئة، وكلماته قليلة، حضوره يذكّرني بالله دون وعظٍ ولا ادّعاء. كنت أراقب نفسي وأنا أختار الجلوس، وأختار الحديث، وأختار الصمت.

مع الأول، كان الوقت يمر سريعًا. الضحك حاضر، والهمّ يتوارى قليلًا، لكن القلب لا يستريح. كنت أخرج من مجالسه متقلًا بشيءٍ لا اسم له، كأنني أخذت قرضًا من الراحة وسأدفعه لاحقًا قلقًا. ومع الثاني، كان الصمت أطول، والحديث أبطأ، لكن النفس تهدأ. لم يكن يحدّثني عني، بل يفتح نافذةً أرى فيها نفسي.

في أحد الأيام، جمعتنا مناسبة واحدة. كان المشهد بسيطًا، لكنه كاشف. مزحةٌ خرجت عن حدّها، كلمةٌ استُسهلت، وقلبي تردّد: أأساير فأُقبل، أم أصمت فأُتّهم بالتصنّع؟ اخترت الصمت. كان صمتًا ثقيلًا، لكنه صادق. شعرت لأول مرة أنني أدفع ثمنًا مباشرًا لخياري، ثمنًا اجتماعيًا صغيرًا، لكنه مؤلم.

لاحقًا، جاء في اختبار أوضح. دُعيت إلى أمرٍ يُرضي الناس ويُزعج قلبي. لم يكن حرامًا صارخًا، لكنه كان تنازلًا واضحًا عن المعنى الذي بدأت أستعيده. جلست طويلًا أفكّر. تذكّرت انكساري، وتذكّرت تلك الليلة التي وعدت فيها نفسي ألا أعود إلى التبرير. قلت: إن عدتُ الآن، فبماذا أعتذر لنفسي؟

اعتذرتُ عن الحضور.

كان القرار بسيطًا في شكله، عظيمًا في أثره. خسرتُ قبولًا سريعًا، وربحتُ احترامًا خفيًا لنفسي. وفي مساء ذلك اليوم، جلست مع الوجه الهادئ الذي دخل حياتي بلا ضجيج. لم يسألني عمّا فعلت، ولم يُثنِ، بل قال جملة واحدة: «الطريق اللي يوجع في أوله، غالبًا بيهون في آخره». شعرت أنها قيلت لي في الوقت المناسب.

بدأت أفهم أن الصحبة ليست عددًا، بل وزنًا. وأن الإنسان لا يُقاس بمن يجلس معهم فقط، بل بما يصبحه بعد أن يقوم. كنت ألاحظ تغيّر قلبي؛ صرت أختار ألفاظي، أراجع نواياي، وأشعر أن الصلاة — وإن كانت قصيرة — صارت أصدق. لم أعد أطلب الكثرة، بل الثبات.

غير أن الاختبار لم ينتهِ. جاء في تلميحٌ جارح، وسؤالٌ ساخر: «اتغيّرت ليه؟». ترددتُ، ثم قلت بهدوء: «ممكن بدأت أفهم نفسي». لم أكن واثقًا من الجواب، لكنه كان حقيقيًا. وتعلّمت أن بعض الناس لا يرضيهم تغيّرك، بل يرضيهم أنك لم تعد تُشبه ضعفهم.

في تلك المرحلة، بدأت أرى أثر الصحبة في أبسط التفاصيل: في نبرة الصوت، في اختيار الوقت، في الميل إلى الخير دون ضجيج. أدركت أن الله إذا أراد أن يحفظ عبدًا، أحاطه بأسباب الحفظ، وأن الصحبة الصالحة ليست ملائكة، بل بشرٌ يذكّرونك إذا نسيت، ويصمتون إذا تكلم الصمت.

انتهى هذا الفصل وقد تغيّرت بوصلتي. لم أعد أسأل: من يُعجبني؟ بل: من يُعينني على أن أكون صادقًا؟ وعرفت أن الاختبار الحقيقي للصحبة ليس في الرخاء، بل في اللحظة التي تختار فيها وحدك ما يُرضي قلبك، ولو خالفت الجميع.

ومن هنا، بدأ البناء الحقيقي... بناءٌ لا يقوم على الحماسة، بل على اختيارٍ واعٍ، يتجدّد كل يوم.

الفصل السابع: لحظة الصدق

لم تكن لحظة الصدق موعدًا مُعلنًا، بل جاءت كعادتها فجأة، حين يظنّ الإنسان أن قلبه استراح قليلًا. بعد اختبارات الصحبة، خُيّل إليّ أنني صرت أعرف الطريق، وأن البوصلة استقرت. لكن الطريق لا يهب يقينه إلا لمن يُمتحن فيه علنًا، أمام نفسه والناس معًا.

جاءت اللحظة في صورة موقفٍ بسيط في ظاهره، جسيم في جوهره. طُلب منّي أن أكون شاهدًا على أمرٍ أعلم في داخلي أنه غير سليم. لم يكن كذبًا صريحًا، بل «تحسينًا للواقع»، كما قيل لي. كلماتٌ منمّقة تُخفي خللًا واضحًا، وتُرضي الجميع إن سكتُّ. شعرت بانضغاط يطبق على صدري؛ فالصمت هنا راحة، والكلام خسارة محتملة.

جلست تلك الليلة وحدي، أستعرض ما مضى. تذكّرت انكساري، وتذكّرت المرايا التي كشفتني، وتذكّرت وجوهًا ابتعدت لأنني اخترت الصدق. سألت نفسي بوضوحٍ لم أعهده: هل أريد سلامة صورتي أم سلامة قلبي؟ كان السؤال قاسيًا، لكنه حاسم.

في الصباح، وقفت في المكان الذي طُلب مني فيه الشهادة. كان الصمت أسهل من شربة ماء. نظرات الترقّب تحاصرني، وتلميحات خفيفة تُشير إلى أن «الأمر بسيط». شعرت بقلبي يخفق، لا خوفًا، بل ثقل مسؤولية. وحين فتحت فمي، خرجت الكلمات أهدأ مما توقعت، وأصدق مما اعتدت.

قلت الحقيقة.

لم أُهاجم، ولم أُراءِ، ولم أُزيّن. قلتها كما هي، كاملة، بلا هوادة ولا مساحيق. ساد صمتٌ قصير، ثم تغيّرت الوجوه. خسرتُ شيئًا من القبول، وربحتُ كثيرًا من الوضوح. أدركت في تلك اللحظة أن الصدق لا يُرضي الجميع، لكنه يُنقذ صاحبه.

تبع ذلك أيامٌ ثقيلة. برودٌ في المعاملة، تراجعٌ في الثقة، وهمساتٌ لا تُقال مباشرة. كنت أتألم، نعم، لكن الألم هذه المرة كان نظيفًا. لم أعد ألوم نفسي في الليل، ولم أحتجّ إلى تبريرٍ قبل النوم. صرت أضع رأسي على الوسادة وأشعر — لأول مرة منذ زمن — أن داخلي متّسع.

وفي مساءٍ هادئ، التقيت بمن عرفوا حقيقتي دون أن أشرح. جلسنا قليلًا، بلا أسئلة. قال أحدهم: «أحيانًا، ربنا يسحّبي ثمن الصح أغلى، علشان يعلّمنا قيمته». ابتسمت. لم أكن أحتاج إلى عزاء، كنت أحتاج إلى فهم.

بدأت أرى أثر الصدق يتسرّب ببطء. ثقة مختلفة تولد، ليست صاخبة، لكنها ثابتة. احترام لا يُعلن، لكنه يُمارس. والأهم، راحة داخلية لا تُشبه أي انتصار سابق. فهمت أن الصدق ليس لحظة بطولة، بل أسلوب حياة؛ تبدأه مرة، ثم تعود إليه كل يوم.

في تلك المرحلة، صار الدعاء أبسط وأعمق. لم أعد أطلب كثيرًا، بل أطلب الثبات. صرت أقول: «يا رب، لا تجعلني أختار الصمت حين يجب الكلام، ولا الكلام حين يجب الصمت». وتعلّمت أن الصدق لا يعني القسوة، بل الوضوح، وأن الرحمة لا تُناقض الحقيقة.

انتهت لحظة الصدق، لكنها لم تنتهِ في داخلي. تركت أثرًا دائمًا: أنني إن خسرت شيئًا لأجل الحق، فقد ربحت نفسي. وأن الله إذا أعانك على قول الحق مرة، فإنه يفتح لك أبوابًا من السكينة لا تُفتح بغيره.

ومن هذه اللحظة، لم يعد الرجوع إلى الخلف ممكنًا... فقد صار الطريق، مهما ضاق، أوضح من أي التفاف.

الفصل الثامن: الامتحانات و ضوء ربي

كان ذلك يومًا دراسيًا عاديًا في ظاهره، استثنائيًا في أثره. استيقظت قبل الفجر بقليل، لا لأن المنبّه رنّ، بل لأن القلوب سبق الصوت. يوم امتحانات. الكلمة وحدها كانت كافية لتثقل الصدر. فتحت عينيّ على سقف الغرفة، وتنفّست بعمق، كأنني أستجمع نفسي من أطرافها المتناثرة.

توضأت في سكونٍ نادر. كان الماء باردًا، لكنه أيقظني من الداخل. ومع أول قطرةٍ على وجهي، شعرت أنني أغسل أكثر من التعب؛ أغسل التوتر، والضجيج، والخوف الذي لا اسم له. صلّيت، لا بطولٍ ولا استعجال، بل بطمأنينةٍ متعمدة، وكأنني أقول لقلبي: لسنا وحدنا في هذا اليوم.

خرجت إلى المدرسة والسماء تميل إلى صفاءٍ خفيف. الشوارع مزدحمة، والوجوه متشابهة، لكن لكلٍّ معركته الخاصة. في الطريق، راجعت ما حفظت، ثم توقفت. قلت لنفسي: لقد فعلت ما أستطيع، والباقي على الله. كانت تلك الجملة صغيرة، لكنها حرّرتني.

في ساحة المدرسة، كان الضجيج سيد المكان. أوراق تُقلّب، أسئلة تُتداول، ضحكات تخفي توترًا، وعيون تترقّب. جلست بين زملائي، لكنني كنت في عالمٍ آخر. تذكّرت لحظة الصدق، وتذكّرت أن البناء الحقيقي لا يظهر في الخلوات وحدها، بل في الأيام العادية المزدحمة.

دخلنا اللجنة. صمتٌ ثقيل حلّ فجأة، كأنه فاصلٌ بين عالمين. وُزّعت الأوراق، وحين وصلتني ورقة الامتحان، شعرت بارتعاشة خفيفة في يدي. قرأت السؤال الأول، ثم الثاني، ثم توقفت. لم يكن صعبًا، لكنه كان يحتاج إلى هدوء. أغمضت عينيّ لحظة، وهمست في قلبي: يا رب، إن كان في علمي نفع فثبّتني، وإن كان في جهلي نقص فاجبرني.

بدأت أكتب. لم تكن الإجابات تتدفق كما في الأيام السهلة، لكنها كانت تأتي واحدةً تلو الأخرى، بترتيبٍ هادئ. كلما تعثّرت، تذكّرت وضوء الصباح، وكأن أثره لم يزل على أطرافي. شعرت أن النور لا يأتي دائماً كمعجزة، بل كطمأنينة تمنحك القدرة على الاستمرار.

في منتصف الامتحان، جاء سؤال أربكني. توقفت طويلاً، ورأيت القلق يعود. هذه المرة لم أهرب، واجهته. كتبت ما أعلم، وتركت ما لا أعلم، دون تزييف. أدركت أن الصدق الذي تعلمته لا يقتصر على المواقف الأخلاقية، بل يمتد حتى إلى الورقة البيضاء.

انتهى الوقت. سلمت الورقة، وخرجت إلى الفناء. الشمس كانت أعلى قليلاً، والهواء أخف. لم أعرف إن كنت قد أحسنت أم لا، لكني كنت مطمئناً. التقيت ببعض الزملاء، تبادلنا كلمات سريعة، ثم افترقنا. لم أشأ أن أراجع كثيراً؛ تعلمت أن بعض القلق لا يُعالج بالكلام.

تابعت الامتحانات في ذلك اليوم. وكل امتحان كان درساً آخر. تعلمت الصبر حين ضاق الوقت، والرضا حين خانتني الذاكرة، والشكر حين جاءت الإجابة. شعرت أن الله يختبرني اختبارين معاً: اختبار العلم واختبار القلب، وكلاهما لا يُجتاز إلا بنور خفي.

عدت إلى البيت متعباً، لكن التعب كان نظيفاً. توضأت مرة أخرى، كأني أجدد العهد، صليت العصر، وجلست قليلاً أستعيد اليوم. فهمت أن الامتحانات ليست في الأوراق فقط، بل في النيات، وفي طريقة التعامل مع الضغط، وفي قدرتك على أن تبقى مستقيماً حين يختلط كل شيء.

في المساء، فتحت دفتري، وكتبت: "اليوم، لم يكن النصر في الدرجة، بل في الطمأنينة". شعرت أن ضوءاً خفيفاً يرافقني، لا يلفت النظر، لكنه يدل الطريق. ضوء لا يصنعه الذكاء وحده، بل التوكل.

وهكذا، مرّ يوم الامتحانات، وترك في قلبي يقيناً جديداً: أن الله إذا أنار قلبك، سهّل عليك ثقل الأيام، وأن وجوه الصباح قد يمتد أثرها حتى آخر السطر في ورقة امتحان.

ومن هنا، بدأ البناء يأخذ شكله العملي.. خطوة هادئة، في يوم عادي، بنور غير عادي.

الفصل الأخير : مسك الختام

لم يصل يوسف إلى هذه النقطة فجأة، بل وصل بعد أن أغلق أبواباً كثيرة في داخله. أغلق باب الشك الذي كان ينهشه، وباب التبرير الذي كان ينقذه ظاهرياً ويُغرقه باطناً، وباب الشكوى التي لا تُغير شيئاً. تعلّم، متأخراً وربما في الوقت المناسب، أن الناس لا تحب سماع المعاناة؛ يحبون النتيجة جاهزة، والنجاح مختصراً، والحكاية بلا تعب.

كان يوسف يعرف ذلك جيداً، لذلك صمت. لم يعد يشرح ما مر به، ولا يسرد ليالي الثقيلة، ولا يبرر اختياراته. اكتفى بأن يعمل، وأن يواصل، وأن يحمل قلبه في يده دون أن يرفعه أمام أحد. كان يقول في نفسه: "إن كان الطريق صادقاً، فسيشهد بنفسه". وهكذا، أغلق يوسف الصفحة الأخيرة من الشكوى، وفتح صفحة الفعل.

مرت الأيام، وهدأ الضجيج من حوله. قلّ السؤال عنه، وخفّ الاهتمام، وبقي هو وحده مع ما اختاره. لم يكن ذلك مؤلماً كما ظن؛ كان مُحرراً. أدرك أن القليل من الوحدة أرحم من كثرة التفاف لا يفهمك، وأن الصمت أحياناً ليس هروباً، بل نضج.

ثم جاء الخبر.. مات يوسف.

لم يكن الموت صاخباً، ولم تُعلن تفاصيله. كان خبراً عابراً في ظاهره، لكنه هزّ القلوب التي اعتادت المرور. فجأة، اتجهت الأنظار إليه. اسمه الذي لم يُذكر طويلاً صار حاضراً في كل مجلس. الذين لم يسألوا عنه وهو حي، تساءلوا عنه وهو غائب، والذين لم يسمعوا وجعه، صاروا يتحدثون عن صبره.

قال الراوي — وأنا الراوي —: ما أقرب القلوب حين تفقد، كيف تُحب النتائج وتنسى الطريق، وتُجيد الرثاء وتبخل بالدعم في وقته. كانوا يقولون: "كان قوياً"، "كان نقياً"، "كان مختلفاً"، ولم يقولوا: "كنا معه حين احتاج."

في ذلك الوقت فقط، دعموه.

رغم متأخر، لا يصل إلى صاحبه، لكنه يكشف الحقيقة. الحقيقة التي تعلمها يوسف مبكراً: أن من يمشي الطريق وحده، يصل وحده، وأن الاعتراف غالباً يأتي بعد الفوات. لم يكن يوسف بحاجة إلى هذا الدرس الآن؛ كان قد أغلق حسابه مع الناس، وفتح حسابه مع الله منذ زمن.

لم يكن مسك الختام موت يوسف، بل أثره. أن ترى ثمرة الصدق وإن غاب صاحبها، أن تفهم أن الطريق لا يُقاس بالصفير، بل بالثبات، وأن من لا يجد من يسمع معاناته، فليجعل عمله يتكلم.

وهنا لا تنتهي الحكاية، بل تبدأ من حيث يظن الناس أنها انتهت.

الملخص

تحكي القصة رحلة يوسف منذ نشأته في بيتٍ صالح، تشكّلت فيه روحه على حبّ الله والطاعة والبحث عن المعنى. كان طفلًا حساسًا، يرى الإعجاز في التفاصيل، ويحلم بحياةٍ ترضي الله قبل أن ترضي الناس.

ومع دخوله سنّ المراهقة، بدأت الغربة الداخلية؛ ففترت طاعته، وتشتّت قلبه بين الواجبات والدنيا، وبين الطموح والهوى. عاش صراعًا خفيًا، وبكى على نفسه أكثر مما بكى على ذنبه، ولم يجد طريقه العودة إلا بالدعاء والمناجاة.

توالت بعد ذلك الاختبارات :تبرير الخطأ، صحبة رمادية، وسقوط هادئ كاد يطمس البصيرة، حتى وصل إلى الانكسار؛ لحظة صدق كاملة مع النفس، سقطت فيها الأقنعة، وبدأ منها التحوّل الحقيقي.

تعلم يوسف أن الصحبة اختبار، وأن الصدق له ثمن، فاختار الطريق الأصعب، وخسر قبول الناس ليكسب وضوح القلب. ثم بدأ البناء من جديد، لا في العزلة، بل في الزحام، حتى في يومٍ دراسي مليء بالامتحانات، حيث أدرك أن الطمأنينة والتوكّل قد يكونان أعظم من أي درجة.

وفي الختام، يصل يوسف إلى قناعة موجعة:
الناس لا تحب سماع المعاناة، بل تريد النتيجة جاهزة.
فيصمت، ويعمل، ويغلق باب الشكوى.

وحين يموت يوسف، تتجه إليه الأنظار، ويأتي الدعم متأخرًا، بعد أن لم يعد يحتاجه. لتُختتم القصة بحقيقة قاسية وصادقة:
أن الاعتراف غالبًا يأتي بعد الفوات،
وأن من لم يجد من يسمع ألمه، فليجعل أثره يتكلم عنه.

تأليف :

اعادة كتابة وصياغة : نور الدين طارق

جميع الحقوق محفوظة ....

شكرا لكم ....

الدروس المستفادة :

الصدق مع النفس هو البداية الحقيقية لأي تغيير

- الانكسار والاعتراف بالخطأ أهم من مجرد الالتزام الظاهري.
- التبرير يسلب الإنسان القدرة على النمو ويؤخّر الصدق.

الغربة الداخلية جزء من رحلة النضج

- أوقات الضياع والتردد طبيعية، لكنها فرصة للتأمل وإعادة البناء.

الصحبة تؤثر أكثر مما نظن

- من يجلس معك يذكّرك بالخير أو يغريك بالضعف.
- اختيار الصحبة الصالحة يمهّد الطريق للثبات.

المواقف الصعبة تختبر صدقنا ووضوحنا

- الصدق ليس سهلاً، وغالبًا له ثمن، لكنه يمنح الطمأنينة الحقيقية.
- مواجهة الحقيقة علنًا (كما فعل يوسف في الفصل السابع) تثبت الشخص أمام نفسه والآخرين.

العبادة والطاعة ليست مجرد شعائر، بل ضوء يرافق الإنسان في الزحام والاختبارات اليومية

- يوم الامتحانات و ضوء الصبح مثال على أن الطمأنينة والقوة تأتي من التوكّل على الله، حتى في أصعب اللحظات.

الناس لا تحب سماع المعاناة، بل النتائج الجاهزة

- الدعم غالبًا يأتي متأخرًا، بعد الفوات، لذلك الاستثمار الحقيقي يكون على الله أولاً، ثم على العمل الصادق.

النجاح الحقيقي هو بناء النفس قبل أي شيء آخر

- يوسف تعلم أن الثبات على المبادئ أهم من الشهرة أو قبول الآخرين.
- القيم الداخلية تُحدث الفرق الحقيقي في حياة الإنسان، أكثر من إعجاب الناس أو تصفيقهم.

الأثر يبقى بعد الغياب

- حتى لو لم يقدّر الناس الصدق والمعاناة في حياتك، فالأثر الصادق يظل قائمًا بعد رحيلك